مشاركة في الملتقى الدولي حول: " الفكر الشمولي عند سيدي أبي مدين شعيب"، يوم 23 أفريل 2024، جامعة تلمسان أبو بكر بلقايد، مركز الدراسات الأندلسية

Participation in the national conference on: " The Holistic Thought of Sidi Abu Madyan Shu'ayb", on April 23, 2024, University of Tlemcen, Abou Bekr Belkaid, Andalusian Studies Center

عنوان المداخلة:

الملمح الفكري والسلوكي للمدرسة المدينية -مقاربة في الأذواق والأنساق-

Title of the intervention:

The Intellectual and Behavioral Characteristics of the Madinian School - An Approach to Tastes and Patterns -

الدكتورة أحلام بلعطار **Doctor :**

Ahlem Belattar

الدرجة العلمية: أستاذ محاضر -أ- Academic Rank : associate professor

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية **Emir Abdelkader University of Islamic Sciences**

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على تطور مدرسة أبي مدين شعيب في تاريخ التصوف الإسلامي، والتي استطاعت الجمع بين العلم والعمل الروحي بطريقة متوازنة تجمع بين الشريعة والحقيقة. ركز أبو مدين على الالتزام بالشريعة ورفض الانحرافات الفكرية، مما جعل طريقته تحظى بقبول واسع من العلماء والنخب. أسس العديد من الزوايا التي ساهمت في الحفاظ على الهوية الإسلامية، وكان تأثير مدرسته يمتد من المغرب إلى المشرق.

تمثل مدرسة أبي مدين نموذجا مميزا يجمع بين الروحانية والفقهية، حيث اعتبر التصوف وسيلة لتزكية المجتمع ورفع القيم الروحية. كما ارتبط بالمذهب المالكي ودمج الفقه مع التصوف، مما أثر في الحياة الدينية في الغرب الإسلامي. تميز منهجه بالتركيز على التوازن بين العلم والعبادة، وهو ما جعل تعاليمه تظل حية ومؤثرة حتى اليوم.

كلمات مفتاحية: المدرسة المدينية – أبي مدين الغوث – التصوف – الذوق – السلوك - الشريعة.

ABSTRACT:

This study highlights the development of Abu Madian Shu'ayb's school in Islamic mysticism, which successfully combined knowledge and spiritual practice in a balanced way, linking Sharia and reality. Abu Madian emphasized adherence to Sharia and rejecting intellectual deviations, gaining widespread acceptance among scholars and elites. He established Sufi lodges that contributed to preserving Islamic identity, with his influence extending from the Maghreb to the Mashriq.

His school represents a model that merges spirituality with jurisprudence, using Sufism to purify society and elevate spiritual values. His teachings, grounded in the Maliki school of thought, continue to impact religious life today by emphasizing the balance between knowledge and worship.

Keyword: Madinian school – Abu Madian al-Ghawth – Sufism – taste – behavior – Sharia.

مقدمة:

يعد التصوف الإسلامي منظومة فكرية وروحية عميقة تتجاوز مجرد التفسيرات الظاهرية للدين، وتسعى إلى استكشاف الأبعاد العميقة للتجربة الدينية. وفي هذا السياق، تبرز مدرسة أبي مدين الغوث كنموذج متميز يستحق التحليل والدراسة، كونها تمثل مرحلة نوعية في تطور الفكر الصوفي الإسلامي.

وتكمن أهمية دراسة الملمح الفكري والسلوكي لهذه المدرسة في كونها تمثل محطة فارقة في تاريخ التصوف المغاربي، حيث نجحت في التوفيق بين الظاهر والباطن، والشريعة والحقيقة. فمدرسة أبي مدين لم تكن مجرد تيار روحي عابر، بل كانت منظومة فكرية متكاملة أسست لنمط متوازن من التدين يجمع بين العمق الروحي والالتزام الفقهي.

كما يهدف هذا البحث إلى تفكيك الأنساق الفكرية والسلوكية التي شكلت جوهر مدرسة أبي مدين، من خلال مقاربة تحليلية تستقرئ أبعادها المعرفية والروحية والاجتماعية. وسيركز على استجلاء الخصائص التي ميزت هذه المدرسة، وكيف نجحت في بناء نموذج صوفي معتدل يتجاوز الانغلاق الفكري ويفتح آفاقًا للتجديد والتفاعل.

من خلال هذه المقاربة، نسعى إلى الكشف عن الأنساق العميقة التي شكلت الملمح الفكري والسلوكي لمدرسة أبي مدين، وإبراز أهميتها في تأسيس نموذج صوفي متوازن ومتجدد.

تتمثل الإشكالية الرئيسية في كيفية نجاح أبو مدين شعيب في دمج الممارسة الروحية مع الشريعة الإسلامية، وخلق مدرسة صوفية تجمع بين الإيمان الداخلي والانخراط الاجتماعي والفكري. فكيف ساهمت هذه الرؤية المتوازنة في قبول مدرسته وانتشار تأثيرها من المغرب إلى المشرق، وما هو دورها في الحفاظ على الهوية الإسلامية؟

كما تتبنى الدراسة منهجا تاريخيا تحليليا، حيث تركز على النصوص الأساسية المتعلقة بتعاليم أبو مدين ومدرسته. تحلل الكتابات والتعاليم التي تركها أبو مدين، بالإضافة إلى السياق التاريخي الذي تطورت فيه مدرسته الصوفية. كما تعتمد الدراسة على المقارنة بين منهجه والتقليد الصوفي الأوسع، مع التركيز على دمج الشريعة والتصوف.

1.تطور المدرسة المدينية

إن تطور مدرسة أبي مدين شعيب يعكس تاريخا غنيا في الفكر والتربية الصوفية، ويمكننا تقسيمه إلى عدة مراحل أساسية:

1.1 مرحلة التأسيس (القرن السادس الهجري/الثالث عشر الميلادي)

1.1.1 نشأة أبي مدين شعيب وتكوينه الصوفي :

وُلد أبو مدين شعيب (1116م - 1198م) في إشبيلية بالأندلس، وبدأ حياته كراعٍ للغنم، لكنه سرعان ما قرر الترحال طلبا للعلم والمعرفة. استقر لفترة قصيرة في مدينة سبتة، ثم توجه إلى مراكش برفقة مجموعة من المسافرين الأندلسيين الذين رأوا فيه قائدا ومعينا لهم، مستغلين سخاءه المادي لصالحهم، وعلى الرغم من الألم الذي شعر به بسبب ذلك، إلا أنه صبر حتى وصل إلى هدفه. وفي مراكش بدأ البحث عن حلقات العلم والعلماء، حيث أشار عليه البعض بالتوجه إلى مدينة فاس التي كانت في القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) مركزًا للحياة الفكرية والثقافية والنهضة الاقتصادية والعمرانية. (بوعزيز، (2009م)، ص14) في فاس، تنقل أبو مدين بين مجالس العلماء دون أن يجد ضالته في البداية، حتى التقى بالعالم الزاهد **أبي** الحسن علي بن حرزهم الذي وصفه قائلا: " كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته، "فاختار ملازمته وتلقى على يديه علوما عدة، ومن أجل إعالة نفسه، عمل نساخا للكتب، واستفاد من مجالسة علماء آخرين مثل الفقيه المجاهد أبي الحسن بن غالب .كما تعمق في علوم الباطن وفن التصوف على يد الشيخ الزاهد أبي يعزى التلمساني.

وقد تلقى أبو مدين في فاس علوما متنوعة أثرت في تكوينه الفكري والروحي، من بينها رعاية المحاسبي على يد أبي الحسن بن حرزهم، و" كتاب السنن" للإمام الترمذي عن أبي الحسن بن غالب، بالإضافة إلى أصول التصوف على يد أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي. (التادلي، (1997م) ، ص322)ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى تأثره بشكل خاص بكتابات أبي حامد الغزالي**(450-505هـ / 1058-1111م)** ، خاصة كتاب" إحياء علوم الدين"، حيث تبنى أفكاره رغم معارضة أستاذه ابن حرزهم، مما يعكس انفتاحه الفكري واستقلاله.

خلال رحلته إلى الحج، التقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني في جبل عرفات، ولازمه في الحرم الشريف بمكة، حيث درس على يديه علم الحديث واعتبره من أعظم شيوخه، معتزا بصحبته وما نهله من علمه. (بوعزيز، (2009م)، 16/2)

فكانت رحلة أبو مدين العلمية غنية بالتجارب والمعارف التي صقلت شخصيته وعمقت رؤيته الصوفية، كما أن تأثره بعلماء الأندلس وفاس والمشرق، مثل عبد القادر الجيلاني والغزالي، جعله يجمع بين علم الظاهر والباطن، ليصبح لاحقًا أحد أعلام التصوف في المغرب الإسلامي.

2.1.1 تأسيسه للمدرسة الصوفية:

أسس الشيخ أبو مدين شعيب المدرسة الصوفية المدينية، حيث ساهمت جهوده وشخصيته المؤثرة في نشأتها وتطورها، وقد كان للظروف السياسية والاجتماعية السائدة في بلاد المغرب والأندلس آنذاك أثر كبير في دعم انتشار التصوف كحركة روحية بارزة.حيث وفرت تلك المرحلة بيئة مناسبة لتقبل الفكر الصوفي، كما كان للازدهار الفكري والثقافي في المنطقة دور هام في نشوء التيارات والمدارس الصوفية المختلفة. (بوعزيز، (2009م)، 16/2)

وقد أدى الانتشار الواسع للتصوف بين المجتمعات الإسلامية خلال تلك الفترة إلى ظهور بعض الانحرافات الفكرية داخل بعض المدارس الصوفية، مما أبرز الحاجة إلى تأسيس مدرسة معتدلة تسعى إلى تقويم المسار وإعادة التوازن إلى الفكر الصوفي، فجاءت مدرسة أبي مدين لتجسد هذا التوجه، إذ اعتمدت منهجا وسطيا أكسبها تأثيرا كبيرا. بد أ أبو مدين في نشر تعاليمه عندما استقر في بجاية وهي المدينة التي كان يفضلها على كثير من المدن، وكان يقول عنها: إنها معينة على طلب الحلال، وكانت بجاية يومئذ قد بلغت أوج إشعاعها الثقافي والحضاري على عهد الحماديين، ثم على عهد الموحدين بعدهم، وعاصر أبو مدين العهدين. (بونابي، (2004م) ص102) واعظا ومدرسا في مساجدها، وكان تأثيره عميقا حيث جذب العديد من المريدين. انتقل إلى تلمسان حيث وافته المنية.

2.1 مرحلة الانتشار (بعد وفاة أبي مدين):

1.2.1 استمرار تعاليمه عبر تلامذته في المغرب والأندلس:

قبل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، كانت العلاقات بين المغرب الأوسط والأندلس تتسم بالضعف والانقطاع النسبي. فقد ارتبط المغرب الأوسط فكريًا وثقافيًا بالقيروان، بينما كان المغرب الأقصى متصلاً بالأندلس سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا. إلا أن مطلع القرن السادس الهجري شهد تحولات جذرية مع ظهور دولة الموحدين، التي ساهمت في نشأة مراكز علمية وثقافية بارزة مثل بجاية وتلمسان،(بونابي، (2004م) ،ص179) مما أعاد تشكيل طبيعة العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس.

في النصف الثاني من هذا القرن، ازدهر التواصل الثقافي والفكري بفضل جهود كبار شيوخ التصوف؛ ومن بين من وفد من المغرب الأقصى إلى مدينة بجاية الشيخ أبو داود المزاحم والشيخ أبو محمد عبد الرزاق الجزولي والشيخ أبي محمد عبد الرحيم القنادي، والشيخ أبي عبد الله القرشي، والشيخ أبي محمد عبدالله الفارسي، والشيخ أبي محمد صاحب الدكالي، والشيخ أبي غانم سالم، والشيخ أبي علي واضح، والشيخ أبي الصبر أيوب المكناسي، والشيخ أبي محمد عبد الواحد، والشيخ أبي الربيع المظفري، والشيخ أبي زيدين هبة الله وغيرهم من العلماء.(اليافعي،(1997م)، 3/121) مما ساهم في توسيع قاعدة التصوف وتأثيره في المنطقة.

ومن أبرز تلاميذ أبي مدين الذين نشروا تعاليمه في الأندلس: أحمد بن جعفر سيد بونة الخزاعي، الذي أسس طريقته في دانية، وأبو يعقوب يوسف بن خلف الكومي في بلنسية. (بن الخطيب، ( )،1/ 113)كان من بين تلاميذه البارزين أيضا الشيخ ابن عربي، الذي تأثر بأبي مدين من خلال شيوخه عبد السلام بن مشيش وأبي محمد صالح. وقد مثّل ابن عربي التصوف الإشراقي المعرفي، بينما جسّد ابن مشيش التصوف السني، مما يعكس التنوع الفكري الذي أفرزته مدرسة أبي مدين. إن هذا التفاعل بين التصوف المغربي والأندلسي أسهم في تبادل ثقافي وديني واسع النطاق. (بونابي، (2004م) ص 281،282)

امتد تأثير أبي مدين ليشمل النخبة والعامة، حيث كان مجلسه في بجاية منارة علمية ودينية، إلى جانب شيوخ آخرين مثل أبي زكريا يحيى الزواوي وأبي تميم الواعظ الوهراني، الذين نشروا العلم في المدن والبوادي على حد سواء. (بونابي، (2004م) ص192)

يُقال إن أبا مدين خرّج ألف تلميذ نشروا تعاليمه، مما أدى إلى انتشار "الطريقة المدينية" التي مثّلت تراثه الفكري. لاحقًا، ظهرت "الطريقة الشاذلية" كامتداد لتعاليمه، إلى جانب الطرق الصوفية الكبرى مثل "القادرية"،(بونابي، (2004م) ص192) لتصبح من أهم المدارس الصوفية في العالم الإسلامي.

2.2.1 امتداد تأثيرها إلى المشرق الإسلامي

امتد تأثير أبي مدين شعيب إلى المشرق الإسلامي بشكل ملحوظ، متجاوزا حدود المغرب السلامي؛ حيث انتشرت طريقته الصوفية في مصر والشام والحجاز، حيث أسس أتباعه زوايا ومراكز روحية لنشر تعاليمه، وأشار إليه العديد من علماء التصوف في كتاباتهم، كما حظيت أقواله المأثورة، خاصة "الحكم المدينية"، بشهرة واسعة في المجالس الصوفية المشرقية، وألهمت أفكاره وأشعاره العديد من الشعراء والأدباء الصوفيين، وتم تضمينها في مؤلفات صوفية عديدة. ساهمت رؤيته في تطوير بعض المفاهيم الصوفية وفي التوفيق بين الشريعة والحقيقة. تبنت بعض المدارس الصوفية في المشرق جوانب من منهجه في التربية الروحية، وأدمجت بعض الطرق أوراده وأذكاره في ممارساتها. ذُكر أبو مدين في العديد من كتب التراجم والطبقات المشرقية،(بونابي، (2004م) ص290)

مما يدل على مكانته المرموقة. كما تم تداول قصص وكرامات منسوبة إليه في الأوساط الصوفية. ألهمت دعوته للتوازن بين العبادة والعمل بعض الحركات الإصلاحية في المشرق، وأثر منهجه في الجمع بين العلم والعمل في توجهات بعض المصلحين. هذا الامتداد الواسع لتأثيره يعكس عالمية تعاليمه وعمق أفكاره، ويبرز دوره المهم في تشكيل الفكر الصوفي الإسلامي بشكل عام، متجاوزاً الحدود الجغرافية والثقافية. يمثل هذا التأثير الممتد شهادة على أصالة فكر أبي مدين وقدرته على مخاطبة الروح الإنسانية بغض النظر عن الزمان والمكان.

وبناء عليه فإن للشيخ أبي مدين دور بارز في ضبط مسار التصوف، حيث دعا إلى الالتزام بالشريعة ورفض الممارسات المنحرفة، مما أكسب طريقته مصداقية لدى العلماء واستمر تأثيرها مع أتباعه. مع توسع قاعدة أتباعه خلال القرنين السابع والثامن الهجري، ظهرت الزوايا الصوفية كمؤسسات لنشر العلم والتربية الروحية، مثل زاوية تلمسان وزوايا المغرب الأوسط وأغمات، (بوعزيز، (2009م)، 36/2)

والتي أصبحت مراكز تعليمية ودينية واجتماعية تسهم في تدريس العلوم الشرعية والتصوف، وتقديم الخدمات الاجتماعية وحل النزاعات. كما لعبت دورا بارزا في مقاومة التغريب وحفظ الهوية الإسلامية خلال فترات الاستعمار. لاحقا تأثرت المدارس الصوفية الكبرى مثل الشاذلية والقادرية بتعاليمه التي اندمجت في الطرق الأخرى،(بوعزيز، (2009م)، 17/2)

خاصة مبادئ المجاهدة والذكر والتربية الروحية. وقد امتد تأثيره الثقافي إلى الأدب والشعر الصوفي، واستمر إرثه حاضرا في العصر الحديث، حيث حظي اهتمام الباحثين بمؤلفاته مثل "عقيدة أهل التصوف"، كما تقام مواسم تكريمية لضريحه في تلمسان، مما يجعل مدرسته مصدر إلهام للصوفية في مواجهة تحديات العصر.

2. الملمح الفكري لمدرسة أبي مدين

تحديد التوجه العقيدي لشخصية فكرية يتطلب دراسة معمقة ومتأنية، وينطبق هذا بشكل خاص على الشخصيات الصوفية التي تحمل خصوصية فكرية متميزة. في حالة أبي مدين شعيب، تبدو العقيدة والتصوف وجهين لعملة واحدة، حيث تظهر آراؤه العقدية مُشبعة بالروحانية الصوفية بشكل لا يمكن فصله. فالتصوف عنده ليس مجرد ممارسة روحية، بل هو منظومة عقدية متكاملة تربط بين العقيدة والسلوك والتجربة الروحية في وحدة متناغمة.

1.2 التوحيد والتنزيه

تتجلى أهمية التوحيد في فكر أبي مدين من خلال منجزه "أنس الوحيد ونزهة المريد"، فعلى الرغم من أنه يصنف ضمن أدبيات التصوف، إلا أن مؤلفه يعتبره في جوهره كتابا عن التوحيد، ويتضح هذا جليا من خلال إدراج كلمة "التوحيد" كجزء أساسي من عنوان الكتاب. بالإضافة إلى ذلك، فإن استخدام مصطلح "المريد" في العنوان يؤكد على الارتباط الوثيق بين التصوف والتوحيد، حيث أن مفهوم "المريد" يعد ركنًا أساسيًا في الممارسة الصوفية. هذا التداخل بين مفاهيم التصوف والتوحيد يبرز الطبيعة المتكاملة للفكر الصوفي، حيث يشكل التوحيد محورًا رئيسيًا في الرؤية الصوفية للعالم والعلاقة مع الله.

حظي منجز أبو مدين شعيب "أنس الوحيد ونزهة المريد" باهتمام كبير في أوساط المتصوفة، واستقطب العديد من العلماء لشرح حكمه ومعانيه العميقة، ومن بين هؤلاء العلماء برز الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد القادر، المعروف بباعشن، الذي قدم شرحا مفصلا لفحواه، وعنونه بـ "البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد للغوث أبي مدين التلمساني"، مركزا على استخراج وتوضيح مفاهيم التنزيه والتوحيد التي تضمنها كتاب أبي مدين. هذا التركيز يشير بوضوح إلى المكانة المحورية التي تحتلها هذه المفاهيم في الفكر الصوفي عامة، وفي أعمال أبي مدين خاصة، مؤكدا على أهميتها الجوهرية في بناء المعرفة الصوفية.

قول أبي مدين الغوث "الفقر أمان على التوحيد، ودلالة على التفريد، الفقر ألا تشهد عين سواه"

فهو يعني بالفقر: الفقر إلى الله وهو الفقر الصحيح؛ لأن الفقر إلى الله هو عين التوحيد، فإذا وحدته حق توحيده علمت أن لا قدرة لأحد غيره؛ لأن طالب الله مو موحده، وموحده مفتقر إليه ومفرده عما سواه مما أوجده، ومن ارتكن على غير الله لم يوحده؛ لأن الذي يطلب من دون شريك له، فأبطل ذلك توحيده بوجود الشريك، وهو سبحانه وتعالى ما له شريك ولا مُعين، ولا نصير ولا وزير؛ إذ الكل إليه مفتقرون من أهل السموات وأهل الأرضين، وتحقيق التفريد هو استغناؤك بالله عن القريب والبعيد، وتحقيق الفقر إلى الله هو استغناؤك عما سواه، وتحقيق التوحيد استقامة قلبك من غيره مع نفي الشبيه والضد، ونفي القرين والند، ونفي التمثيل ومفارقة التعطيل. (باعشن، (2005م)، ص 69)

إن هذا الشرح يوضح مفهوم الفقر في التصوف وعلاقته بالتوحيد، فالفقر هنا يقصد به الافتقار إلى الله، وهو جوهر التوحيد الحقيقي. فالموحد الحقيقي يدرك أن القدرة كلها لله وحده، ويتجرد من الاعتماد على أي شيء سواه، هذا الإدراك يجعل العبد يطلب الله وحده دون شريك، مبتعداً عن أي شكل من

أشكال الشرك. الشارح يؤكد أن الله منزه عن الشريك والمعين، وأن جميع المخلوقات مفتقرة إليه. تحقيق التوحيد، وفق هذا الشرح، يتطلب الاستغناء بالله عن كل ما سواه، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل، مع الابتعاد عن التعطيل (إنكار صفات الله). هذا الفهم العميق للتوحيد يؤدي إلى استقامة القلب وتوجهه الكامل نحو الله وحده.

يجسد جوهر التجربة الصوفية في علاقتها بالتوحيد والتنزيه. فالفقر هنا يشير إلى الافتقار الروحي إلى الله، وهو حالة تحمي المؤمن من الشرك وتعزز توحيده الخالص، ويجعل العارف لا يرى سوى الله في كل شيء، منزها إياه عن كل نقص أو مشابهة للمخلوقات. وبهذا، يصل الصوفي إلى مقام عالٍ من المعرفة، حيث يفنى عن رؤية نفسه وكل ما سوى الله، محققا بذلك التوحيد الكامل والتنزيه المطلق. فالقول يلخص سعي الصوفي نحو تجريد القلب من كل ما عدا الله، مؤكداً على الاعتماد التام عليه سبحانه وتعالى.

ويجسد قول أبي مدين "**أنفع العلوم: العلم بأحكام العبيد، وأرفع العلوم: علم التوحيد**" رؤية متكاملة تتناغم بعمق مع المذهب الأشعري. فهو يبرز التوازن الذي يدعو إليه الأشاعرة بين العقل والنقل، حيث يمثل "علم التوحيد" الجانب العقدي والعقلي، بينما تمثل "أحكام العبيد" الجانب الفقهي والعملي. هذا القول يعكس أيضا منهج الأشاعرة في الجمع بين الظاهر والباطن، والتأكيد على أهمية العقيدة دون إهمال الجانب العملي للدين. كما يتجلى فيه المنهج الوسطي الأشعري الذي يسعى إلى تحقيق التكامل بين مختلف العلوم الشرعية. وبهذا، يقدم أبو مدين صورة للمعرفة الدينية تجمع بين البعد الروحي والعملي، متوافقة مع النظرة الأشعرية الشمولية للدين الإسلامي.

2.2 الفناء في الحب الإلهي

اشتهر أبو مدين شعيب بعمق حكمه وأقواله في مجال المحبة الإلهية، ومن أبرز عباراته التي تختصر جوهر تجربته الروحية قوله: "المحبة الأنس بالله، والشوق إليه". في رؤية أبي مدين، يتحقق الأنس بالله عبر الاستمرار في ذكره، و الانصراف عما سواه، و تخليص القلب من الشواغل، والمواظبة على عبادته في البكور والأصال، أما الشوق إلى الله، فيتجلى من خلال الانغماس الكلي في هذه الممارسات، وهجران إخوان السوء، وإزالة كل ما يعيق القرب من الله حتى يصبح كل ما يتعلق بالإنسان من فكر وذكر وطعام وشراب وحياة وموت وعبادة مكرسا لخدمة الله والقرب منه في كل الأوقات. ص171

يبرهن أبو مدين على المكانة المحورية للحب الإلهي في التجربة الصوفية من خلال تصميمه لمسار روحي متكامل يهدف إلى بلوغ أرقى درجات التصوف؛ حيث يضع الاستعداد الفطري للحب الإلهي في مقدمة المراحل، معتبرا إياه حجر الأساس الراسخ في جوهر النفس البشرية. مما يؤكد أن الحب الإلهي ليس مجرد عنصر ثانوي في الرحلة الصوفية، بل هو نقطة الانطلاق الأساسية والمحرك الرئيسي لكل ما يليه من مراحل، يليه المداومة على ذكر الله في جميع الأحوال، ثم السعي لتهذيب النفس والتحلي بالأخلاق السامية، وأخيرا تجاوز الواجبات الدينية الأساسية والنوافل المعتادة إلى التطوع بالمزيد من العبادات. (سرور، (2017م)، ص12) ويتجلى هذا المسار الروحي بوضوح في نتاجه الشعري، لا سيما في قصائده التي تتناول الحب الإلهي متخذة من أسلوب الغزل الإنساني قالبا لها؛ بحيث تتميز بتشابه ملفت مع الشعر الغزلي التقليدي من حيث البناء والأسلوب والدلالات اللغوية، إلا أن جوهرها يكمن في سياقها الصوفي العميق، فمن خلال إشارات لفظية ودلالية دقيقة، يكشف أبو مدين عن معانٍ صوفية عميقة تتجاوز الظاهر اللغوي للنص؛ مما يتيح للمريدين فهم واستيعاب أبعاد التجربة الصوفية بطريقة أكثر يسرا وألفة، معتمدا على الصور والمعاني الشعرية المألوفة كمدخل لعالم التصوف الرحب. ومن نماذج شعره: (الغوث،(2011م)، ص14)

تذلَّلت في البلدانِ حين سبيتَني وبتُّ بأوجـــــاعِ الغوى أتَقَلَّبُ

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ وأترُكُ قلبـــــاً في هـواكَ يعذَّبُ

ولكنَّ لي قلبا تملَّكهُ الهـــوى فلا العيشُ يهتنا لي ولا الموت أقربُ

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يضمها تذوقُ سيـاق الموت والطفل يلعبُ

فلا الطفلُ ذو عقلٍ يحنُّ لما بها ولا الطيـرُ ذو ريشٍ يطيرُ فيَذهبُ

تسمّيتُ بالمجنون ألم الهـوى وصارت بي الأمثال في الحي تُضرَبُ

فيا معشرَ العُشّاقِ موتوا صبابةً كما مـاتَ بالهجـرانِ قيس معذَّب

تبرز في هذه الأبيات الشعرية لأبي مدين الغوث براعة فنية تتجلى في عمق المشاعر، وقوة التصوير الشعري واستخدام الرموز الصوفية، حيث يستلهم تقنيات الغزل العفيف ليجسد علاقته بالخالق، فيرسم نفسه كمن أسرته محبة الله، يهيم في الأرض متألما من وخز الشوق ولوعة الهيام، ويعبر عن رغبته

في امتلاك قلبين: أحدهما للحياة الدنيوية والآخر لمحبة الله، مصورا بذلك التوتر بين مطالب الدنيا والتوق للاندماج في المحبة الإلهية. ويضيف أبو مدين عمقا لهذا المفهوم بقوله: **"ولسان المحبة يدعو إلى الذوبان والهيمان ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو والإثبات"** (باعشن، (2005م)، ص 38). إن هذا القول يبرز التناغم الدقيق بين المحبة والمعرفة في المسار الروحي، حيث تقود المحبة إلى حالة من الانصهار الروحي، بينما تدفع المعرفة نحو تجاوز الذات وإعادة اكتشافها في ضوء الحقيقة الإلهية، كما تتجلى في هذا المفهوم طبيعة متغيرة للعلاقة بين حالتي الوعي الذاتي (الصحو) والاستغراق الكامل في الحب الإلهي (الفناء). فتجربة الحب الإلهي عند أبي مدين ليست ثابتة، بل هي عملية ديناميكية متحركة، يتنقل فيها الصوفي بين إدراكه لذاته وذوبانه في الذات الإلهية. هذا التذبذب بين الحالتين يشكل جوهر التجربة الروحية ويعد جزءا أساسيا من الطريق الصوفي، مؤثرا بشكل عميق على رؤية أبي مدين للعلاقة المعقدة والمتغيرة باستمرار بين الإنسان والله.

ثم نجده يستخدم صورة بليغة ليجسد ضعفه أمام جلال الحب الإلهي، فيشبه نفسه بعصفور هش في قبضة طفل غافل، مما يعكس بدقة شعوره بالعجز والضعف في مواجهة عظمة الحب الرباني. بعدها يلجأ أبو مدين إلى استحضار التراث الشعري العذري، وخاصة قصة قيس المجنون الشهيرة، لتعميق التعبير عن مشاعره وشدة وجده، حيث لم يكن للجنون في الأصل معنى سوى التعبير عن استغراق قيس في عاطفته، وطغيان هذه العاطفة على جوانب شخصيته (إيزولي، (2013م)، ص 104) وقد وجد في مفردات الغزل العذري أداة تعبيرية قوية لنقل تجاربه الروحية، فالتشابه في مفاهيم المعاناة، الحرمان، الشوق، الحنين، والتذلل للمحبوب بين الحب العذري والتجربة الصوفية مكنه من استخدام هذه اللغة بفعالية، لكنه لم يكتف بمجرد النقل، بل ارتقى بهذه الرموز إلى آفاق التجلي الإلهي، محولا إياها من سياقها الأرضي إلى المستوى الروحاني الأسمى، (نصر، (1983م)، ص175) ومع ذلك يظهر أبو مدين إدراكا عميقا للفرق الجوهري بين محبة العبد لله والمحبة البشرية المألوفة. فهو يعي أن الله سبحانه، في كماله المطلق وصمديته، يتجاوز قدرة الإدراك البشري المحدود على الفهم والإحاطة الكاملة، وعليه فإن المحبة الإلهية في شعر أبي مدين تتجلى كنوع من العشق يتسامى فوق الميول المعهودة في العلاقات الإنسانية، ليصبح تجربة روحية خالصة تعكس سمو الذات الإلهية وتنزهها عن المشابهة، ويعضد ذلك قول القشيري: " وليست محبة العبد له سبحانه متضمنة ميلا، كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحاق والدرك والإحاطة." (القشيري، (2022م)،ص 319)

بهذا الأسلوب نجح أبو مدين في تقديم تجربته الروحية والصوفية من خلال قالب شعري مألوف ومحبب، مما ساهم في نشر أفكار مدرسته الصوفية وجعلها أكثر قبولا وفهما لدى عامة الناس، مع الحفاظ على عمقها الروحي لمن يتأمل فيها.

3.2 الجمع بين الروحانية والواقعية

يتجلى التصوف في فكر أبي مدين شعيب، كمنهج حياتي متكامل يجمع بين البعد الروحي والواقعية الاجتماعية. كما يرفض فكرة الزهد المنعزل عن مشاكل المجتمع، ويسعى بدلا من ذلك إلى تقريب التصوف من الحياة اليومية للناس، جاعلا منه وسيلة لتزكية المجتمع بالقيم الفاضلة، وتوجيه الأرواح نحو الاتصال الحقيقي بالخالق. ويتمثل الهدف الأسمى في هذه الرؤية في صقل النفوس وتهيئتها لاستقبال التجليات والمعارف الإلهية، وليس مجرد الانعزال والتقشف.

في هذا السياق، ينظر أبو مدين إلى التصوف باعتباره علما عمليا يقود مباشرة إلى الحقيقة والمعرفة العرفانية، دون أن يتعارض ذلك مع الأصول القرآنية والنبوية؛ إذ أن جوهر التصوف، بالنسبة له، لا يكمن في المظاهر الخارجية أو الممارسات الشكلية كـ "تشهيد الأحكام" و"تدريج الأقدام"، وإنما في "سلامة الصدور، وسخاوة النفوس والاقتداء بالمنزَّل، والعمل بالمرسل". (ابن القنفذ، (2002م/ 1422هـ)، ص26) ويختزل التصوف في عبارة: " ثمن التصوف تسليم كلك"، (الغبريني،(1981م)، ص63.)مشيرا إلى ضرورة التكريس الكامل للذات في الممارسة الصوفية بهدف التخلص من الأخلاق الدنيوية، وإخماد الصفات البشرية المعيقة للتطور الروحي، ومقاومة الدوافع النفسية الدنيوية، والسعي لاكتساب الصفات الروحانية السامية، والارتباط بعلوم الحقيقة الإلهية، مع الالتزام بتعاليم النبي محمد ﷺ في الشريعة. ،(بن علان، د.ت، ص229) هذا التفسير يبرز التصوف كعملية شاملة لتزكية النفس وتطهير القلب، للارتقاء بالإنسان روحانيا مع الحفاظ على التوازن بين الجوانب الباطنية والظاهرية في الممارسة الصوفية.

وعليه فإنه ينصح بعدم الركون إلى من تظهر له الكرامات وتنخرق له العادات، بل بالنظر إلى مدى امتثالهم للأوامر والنواهي الشرعية، ويبرز ذلك في قوله: " إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات وتنخرق له العادات فلا تركنوا إليه، ولكن انظروا كيف هو عند امتثال الأمر والنهي"، فمن تحقق بامتثال الأوامر والنواهي فقد تحقق بأعظم الكرامات عند أولي البصائر؛ (بن علان، د.ت، ص280)، (باعشن، ص96) إذ أن العبرة في العارف هو امتثاله لأوامر الحق ونواهيه فإذا كان شهوده له حقيقة، وبلوغه بالمجاهدة والاستقامة كانت الكرامة زيادة له في اليقين والشهود، أما إذا كانت على غير ذلك من فروض العلم

والعمل، فهي استدراج لصاحبها إما أن يفيق من غفلة فيصحح الطريق، وإما أن يتمادى في دعواه، فيلحقه الخسران المبين. (العلاوي، (1989م)، ج1ص114)

وبذلك يجسد هذا قول توازنا دقيقا بين الروحانية والواقعية في الحياة الدينية، فبينما يقر بوجود الظواهر الروحانية كالكرامات وخوارق العادات، إلا أنه يحث على عدم اعتبارها المعيار الأساسي لتقييم صلاح الشخص، وبدلا من ذلك، يوجه الأنظار نحو السلوك اليومي والالتزام العملي بالشريعة والأخلاق، جامعا الإيمان بالبعد الروحي للحياة مع التركيز على الأفعال الملموسة، ومقدما رؤية للتدين يندمج فيها عمق الإيمان وصدق الممارسة؛ حيث تتجلى حقيقة الإيمان في السلوك اليومي والتعاملات الاجتماعية، متجاوزة مجرد المظاهر الخارقة إلى جوهر الالتزام الأخلاقي والعملي.

بذلك، يتجاوز أبو مدين مجرد الالتزام الظاهري بالضوابط الشرعية إلى تحقيق تغيير جوهري في القلب والسلوك، وتطبيق عملي للقيم الروحية في الحياة اليومية. وهو بهذا يسعى إلى توجيه المتصوفة نحو رؤية أعمق وأكثر جوهرية للتصوف، بما يجعل التعاليم الصوفية في متناول عامة الناس، متميزًا عن التيارات الفلسفية المجردة التي كانت سائدة في عصره.

4.2 الالتزام بالمذهب المالكي

إن التزام أبي مدين شعيب بالمذهب المالكي كان اختيارا نابعا من إدراكه العميق لتوافق هذا المذهب مع نهجه الصوفي الوسطي، فقد وجد فيه نهجا يوازن بين تقدير الموروث الفقهي متمثلا في إجماع أهل المدينة وفقههم والانفتاح الفكري المتجلي في استخدام أدوات اجتهادية كالمصالح المرسلة والاستحسان. هذا التناغم بين الأصالة والتجديد مكنه من تقديم رؤية روحية عميقة تستجيب لتحديات الواقع وتحافظ في الوقت ذاته على أصالة التراث الإسلامي، فضلا عن ذلك، استثمر الانتشار الواسع للمذهب المالكي وغناه المعرفي لبناء قاعدة لنشر أفكاره الصوفية وتطوير منهجه الخاص.

ومن الملاحظ أن تبني أبي مدين للمذهب المالكي قد تجاوز نطاق تأثيره الفكري الشخصي ليحدث تحولا جوهريا في النسيج الاجتماعي والتربوي لعصره، فقد أدى هذا الالتزام إلى ارتقاء مكانته الاجتماعية، حيث أصبح مرجعا موثوقا في مجالات الإفتاء واستنباط الأحكام الشرعية والإرشاد الروحي. (ابن مريم التلمساني، (1986م)، ص 112) . (الحفناوي، (1985م)، 2/ 172)، (المقري التلمساني، (1988م) ، 137/7)

علاوة على ذلك، شكل المذهب المالكي الركيزة الأساسية في منهجه التعليمي لمريديه، مما ساهم بشكل فعال في توسيع نطاق انتشار المذهب وزيادة قاعدة أتباعه، وبهذا يمكن القول إن تأثير أبي مدين امتد

ليشمل الجوانب الفقهية والاجتماعية والتربوية في مجتمعه، مما يعكس الدور المحوري الذي لعبه في تشكيل الهوية الدينية والثقافية لعصره، ومن الأدلة البارزة على دوره الفعال في تجديد وإثراء المذهب الفقهي المالكي، موقفه الحازم في رفض التقليد الأعمى؛ فقد اتخذ نهجا نقديا صارما يدعو إلى التفكير المستقل والاجتهاد، متحديا بذلك الجمود الفكري السائد في عصره، ويتجلى هذا في قوله: "إنما حرموا الوصول بترك الاقتداء بالدليل وسلوكهم إلى الهوى" (بن علان، د.ت، ص153) ؛ مما يؤكد على أهمية اتباع الدليل والبرهان بدلا من الانقياد للأهواء الشخصية، كما عبر عن أهمية الكلام الهادف المطابق للحقيقة بقوله: "الحديث ما استدعيت من الجواب، والكلام ما صدقك من الخطاب". (بن علان، د.ت، ص182.)

ومن الطبيعي أن نجد في كتاب أبي مدين "أنس الوحيد ونزهة المريد" العديد من القواعد الفقهية والأصولية، ولكنها صيغت بأسلوب صوفي عرفاني. هذا المزج بين الفقه والتصوف يتجلى في أقواله، مثل: "الحق سبحانه وتعالى، يجري على السنة علماء كل زمان ما يليق بأهله." (بن علان، د.ت، ص 63)

وكذلك في قوله: "ما فات لا يستدرك، لأن الوقت الثاني غير الأول." هذه الأمثلة توضح كيف استطاع أبو مدين أن يصوغ المفاهيم الفقهية والأصولية بلغة صوفية؛ مما يعكس قدرته على الجمع بين العلوم الظاهرة والباطنة في منهجه الفكري والتربوي.

وقد تجلت العلاقة التكاملية بين أبي مدين والفقه المالكي في تأثيرهما المتبادل والعميق، فمن جهة أسهم أبو مدين بشكل فعال في تجديد وتنشيط الفقه المالكي، مما أدى إلى إحيائه وتوسيع نطاق انتشاره، ومن جهة أخرى وفر المذهب المالكي له أساسا متينا لبناء منهجه الصوفي وتطوير أسلوبه التعليمي، ومن تمظهرات هذا التأثير والتكامل قوله: "من اكتفى بالكلام في العلم، دون اتصاف بحقيقته تزندق وانقطع ومن اكتفى بالتعبد دون فقه، خرج، وابتدع ومن اكتفى بالفقه، دون ورع اغتر، وانخدع. ومن قام بما يجب عليه من الأحكام، تخلص، وارتفع ". فمن يكتفي بالمعرفة النظرية للعلم دون تطبيقه وتجسيده في حياته، يعرض نفسه لخطر الانحراف الفكري والانقطاع عن جوهر الدين. ومن يغرق في العبادة دون فهم عميق لأحكام الشريعة، قد ينزلق إلى البدعة والخروج عن الصراط المستقيم. أما من يقتصر على الفقه دون تهذيب النفس وتزكيتها، فإنه يخدع نفسه ويغتر بعلمه، وفي المقابل يؤكد أبو مدين أن الطريق الصحيح يكمن في الجمع بين الفهم العميق لأحكام الشريعة وتطبيقها بورع وإخلاص، فمن يحقق هذا التوازن يرتقي في مدارج الكمال الروحي والعملي. (بن علان، د.ت، ص281)

إن هذا التآلف المميز بين التصوف والفقه المالكي أحدث تحولا جوهريا في نسيج مجتمع الغرب الإسلامي، فقد شهدت المنطقة توسعا ملحوظا في حضور المتصوفة والأولياء مقدمة نموذجا يمزج بين العمق

الروحي والالتزام الفقهي. هذا النهج المتكامل جعل تعاليم أبي مدين ذات تأثير عميق في شتى طبقات المجتمع.

الأهم من ذلك، أن هذا العصر شهد تشكل منظومة فكرية متكاملة جمعت بين ثلاثة أركان أساسية: الفقه المالكي، والعقيدة الأشعرية، والتصوف الجنيدي؛ حيث أضاف هذا المزيج بعدا روحيا عميقا إلى النسيج الفكري والعملي الذي كان سائدا في الغرب الإسلامي، فالتصوف الجنيدي، بتأكيده على ضرورة الالتزام بالشريعة في الممارسات الصوفية، وجد توافقاً طبيعياً مع الفقه المالكي المحافظ، وفي الوقت نفسه، انسجمت تعاليمه الروحية مع العقلانية المعتدلة التي تميزت بها العقيدة الأشعرية؛ مما أسهم في إثراء الحياة الدينية والثقافية في المنطقة، وجعل الدين جزءًا أصيلاً من هٰوية المجتمع.

3. الملمح السلوكي لمدرسة أبي مدين

1.3 الأخلاق والآداب

1.1.3 التحلي بمكارم الأخلاق

يصور أبو مدين حسن الخلق تصويرا حيا، متجاوزا التعريفات النمطية ليقدم رؤية عملية نابضة بالحياة. فقوله: "حسن الخلق معاملة كل أحد بما يؤنسه ولا يوحشه" يربط بين الأخلاق ومهارة التعامل مع الآخرين(بن علان، د.ت، ص291.)، مؤكدا أن حسن الخلق يستلزم ليونة وتفهما في التعامل مع كل شخص بما يناسب طبيعته، وبهذا المعنى تصبح الأخلاق وسيلة لإنشاء مجتمع قائم على الاحترام المتبادل والتفاهم، بدلا من مجرد مجموعة من القواعد.

وفي منهجه التربوي، يركز أبو مدين على تعليم الأخلاق بالقدوة قبل القول، داعيا المربين والشيوخ إلى تجسيد الأخلاق الحسنة في سلوكهم قبل تعليمها لغيرهم، ويتجلى ذلك في قوله: "والشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه وأنار باطنك بإشراقه"؛ (بن علان، د.ت، ص282) حيث يلخص بعمق جوهر التربية الصوفية ودور الشيخ المرشد. فهو يشير إلى ثلاثة أبعاد أساسية في العلاقة بين الشيخ والمريد: التهذيب الأخلاقي من خلال القدوة العملية، والتأديب السلوكي عبر السكينة والصمت الحكيم، وأخيرا التنوير الروحي للباطن من خلال الإشراق المعنوي.

من خلال هذا القول يتضح أن تأثير الشيخ الحقيقي يتجاوز التعليم اللفظي إلى التربية بالحال والمقام، وأن التزكية الشاملة تتحقق بالتأثير على الظاهر والباطن معا.(الجيلاني، 1990، ص449-450.) وبهذا،

يقدم أبو مدين تصورا متكاملا للتربية الروحية يجمع بين تهذيب الأخلاق، وتأديب النفس، وتنوير القلب، مبرزا عمق وشمولية المنهج الصوفي في التربية والإرشاد.

إن هذا التركيز على مكارم الأخلاق في منهج أبي مدين يعكس فهمه العميق لجوهر الإسلام والتصوف، ويقدم رؤية متكاملة للتربية الروحية والأخلاقية التي تهدف إلى بناء الإنسان الصالح والمجتمع الفاضل.

2.1.3 آداب الصحبة والمعاملة

تحتل آداب الصحبة والمعاملة مكانة بارزة في تعاليم أبي مدين شعيب، حيث يعتبرها أساسية في السلوك الصوفي والحياة الاجتماعية، فيبرز ذلك بقوله: " كن مع الفقراء بالأنس والانبساط، ومع الصوفية بالآداب والارتباط، ومع المشايخ بالخدمة والاغتباط، ومع العارفين بالتواضع والانخفاض ." (بن علان، (د.ت)، ص 291)

وتعد معرفة آداب الصحبة وحسن الأخلاق ضرورية لتحقيق ثمار التجارب بشكل أفضل مما حققه الآخرون. ولتحقيق ذلك، ينبغي التعامل مع كل شخص بما يناسبه، وتحسين الخلق مع الجميع بما يتوافق مع طبيعتهم.

وفي هذا السياق، يأتي الأنس والانبساط مع الفقراء لجلب السرور والبهجة لهم، أما فيما يخص الصوفية، فيجب الالتزام بالأدب والاحترام، نظرا لكون جوهر التصوف هو الأدب. وعلاوة على ذلك، فإن تقديم الخدمة بسرور للمشايخ يعد أمرا محوريا، حيث إن الخدمة هي سبيل الرفعة، ثم يأتي التواضع والانخفاض مع العارفين، وذلك لتجاوزهم حدود أنفسهم. والجدير بالذكر أن التواضع أمامهم هو في الحقيقة تواضع لمن وهب القدرة على السير في الطريق المستقيم. (بن علان، (د.ت)، ص 292)

وفي إطار تعميق العلاقات الإنسانية والروحية، يعرض أبو مدين الغوث صورة واضحة لكيفية التعامل مع مختلف فئات المجتمع، فهو يوصي بالتعامل مع العلماء بحسن الاستماع والافتقار؛ مما يعزز الإنصات الكامل وتقبل المعرفة بتواضع، ومع أهل المعرفة، يدعو إلى السكون والانتظار؛ مما يحقق الهدوء الداخلي والصبر اللازم لاستيعاب الحكم العميقة، أما مع أصحاب المقامات الروحية العالية، فيوصي بالتوحيد والانكسار؛ مما يعمق الإيمان والخضوع لله. (بن علان، (د.ت)، ص 291).

وبناء على ذلك، يمكن القول إن تعاليم أبي مدين حول آداب التعامل مع الآخرين هي ثمرة تجربة عميقة وحكمة واسعة، حيث تقدم لنا منهجا للتعامل الروحي والاجتماعي، يهدف إلى تعزيز التواصل الفعال والنمو الروحي، وبناء مجتمع متماسك.

2.3 . الممارسات الروحية

1.2.3 حقيقة الذكر

بينما يعرف بعض المتصوفة الذكر بأنه: " ..ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أو ترديد صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو غير ذلك مما يُتقرَّبُ به إلى الله" (السكندري، (2008م)، ص 4)، فإن أبا مدين يقدم رؤية أعمق للذكر، فهو يتجاوز في تصوره المفهوم الظاهري المتمثل في مجرد ترديد الكلمات، ليصل إلى صميم التجربة الروحية وجوهرها، فيقول: " الذكر: ما غيبك عنك بوجوده، وأخذك منك بشهوده. الذكر شهود الحقيقة، وحمود الخليقة"؛ أي إذا غيبك عنك بشهوده فهذا غاية مراتب الذكر، وهو عين شهود الحقيقة وحمود الخليقة؛ إذ من شهد الحقيقة حمدت خليقته ومن حمدت خليقته فنيت أوصافه، وغابت عنه بشريته، وكل ذلك من فوائد ذكر لا إله إلا الله، والتحقق بآداب معنى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"(بن علان، (د.ت)، ص 267)، فهو يصف الذكر بأنه حالة من الاستغراق الكامل في حضور الله، حيث يغيب الذاكر عن ذاته ويفنى في مشاهدة الحق سبحانه.

إن هذه الحالة السامية من الذكر تؤدي إلى نتيجتين جوهريتين: الأولى هي "شهود الحقيقة"، أي الوصول إلى رؤية الحقيقة الإلهية والكشف عنها بعين البصيرة، والثانية هي "حمود الخليقة"، حيث يصبح الذاكر محبوبا ومقدرا بين الناس نتيجة لتحوله الروحي؛ لأن "جميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ومنشؤها عن الذكر" (القشيري، (2022م)، ص110)، وبهذا المفهوم يرسم أبو مدين صورة للذكر كممارسة تحويلية عميقة تؤثر على الوجود الداخلي للإنسان وعلاقاته الخارجية، مجسدا بذلك جوهر التعاليم الصوفية في السعي نحو القرب الإلهي والكمال الإنساني.

ويربط أبو مدين الغوث بين الذكر والشكر بطريقة عميقة ومتكاملة، مظهرا العلاقة الوثيقة بينهما كعلامتين على إرادة الله الخير لعبده. فيقول: " إذا أراد الله بعبد خيرا آنسه بذكره، ووفقه لشكره"، فهو يوضح كيفية إيناس الله لعبده من خلال ذكره، مما يمنحه راحة نفسية وقربا روحيا، ثم يوفقه لشكره، وهو ما يترجم هذا القرب إلى عمل وامتنان، ومن الملاحظ أن هذا التسلسل يشير إلى دورة إيجابية حيث يقود الذكر إلى الشكر، والشكر بدوره يعزز الذكر، فكلاهما يقدم كفضل إلهي وتوفيق من الله، (بن علان، د.ت، ص278) مما يؤكد على دورهما المتكامل في حياة المؤمن.

يؤسس أبو مدين بهذا الربط رؤية شاملة للعبادة تجمع بين الجانب الروحي (الذكر) والجانب العملي (الشكر)، ليؤكد على أهمية تضافرهما في تحقيق القرب الإلهي.

2.2.3 العزلة والخلوة

العزلة والخلوة كانتا من الممارسات الروحية المهمة في منهج أبي مدين شعيب، حيث اعتبرهما وسيلة فعالة للتزكية الروحية والتقرب إلى الله. " فالعزلة تريح القلب من أشغال الدنيا، وتفرغه لله تعالى، فتنفجر منه ينابيع الحكمة، والخلوة أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يصير خليقا بأن يكون قالبه ممرا لواردات علوم الغيب، وقلبه مقرا لها ". (القسطلاني، (2021م)، ج1ص63)، (عيسى،(2007م)، ص162) يقول أبو مدين: " الوحدة بحضرة تلهب، ثم نظرة تسلب " ، ومعنى الوحدة الخلقية هي العزلة في الخلوة؛ لأن الوحدة والعزلة نارية على النفس تلهب عليها لتحرق رعونتها، وتميت دغائلها، تحبسها من مرادها، وتقعدها عن شهواتها. (باعشن،(2005م)، ص89،90) وفي هذا السياق يصف العزلة والخلوة بأنها "نارية على النفس"، مستخدما استعارة النار لتوضيح تأثيرها القوي والمطهر على النفس البشرية. فهذه العزلة تعمل على إحراق "رعونة" النفس، أي غرورها وتكبرها، وتميت "دغائلها"، وهي الصفات السيئة المخفية فيها، كما أن هذه الخلوة تقيد النفس عن اتباع رغباتها الدنيوية وتمنعها من الانغماس في شهواتها، وبهذا تصبح العزلة والخلوة أداة قوية لتهذيب النفس وتطهيرها، حيث تجبرها على مواجهة ذاتها بعيدا عن ملهيات الدنيا ومغرياتها، من أجل تزكية النفس وتقويتها روحيا، مما يمهد الطريق لتحقيق قرب أعمق من الله وفهم أوضح للذات؛ لأن الأنس بالخلق دليل على الغفلة، وعلامة على البعد من مولاه، والإعراض عن حضرته، ومن كان كذلك استوحش من الحق، وصار بعيدا، واستولت عليه النفس والهوى، وصار طريدا. فكن عن الناس جانبا، وارض بالله صاحبا؛ لعلك تنال شمة من الحضور ويذهب عنك لغات الغفلة، ويتم لك السرور. (بن علان، (د.ت)، ص 278)

إن الارتباط الشديد بالناس حسب ابي مدين قد يكون مؤشرا على الغفلة عن الله وعلامة على البعد عن حضرته، مما يفضي إلى نوع من الوحشة الروحية؛ حيث يجد المرء نفسه بعيدا عن الحق، وقد تسيطر عليه نفسه وأهواؤه، لذلك ينصح أبو مدين بالابتعاد قليلا عن الناس والرضا بالله كرفيق وصاحب، كي يخلصه من غفلته، ويمنحه سعادة حقيقية، ولبيان هذا المعنى يقول: " الفتوة ألا تشتغل بالخلق عن الحق"،

فالفتوة التي هي مقام الكمال من الرجال هي عدم اشتغالك بالخلق، وذلك عين اشتغالك بالحق؛ لأنك متى انفصلت وصلت، والاشتغال بالحق هو عين المراقبة؛ لأن حقيقتها أن تعلم أن الله مطلع على أحوالك، فتراقب هذا المعنى بأن تصير رقيبا له، وحارسا لمعناه، ومتوسلا لطلب ما يفيض عليك من ظلال مبناه، والمراقبة التي هي عين الفتوة أصل جميع السعادات. (بن علان، د.ت، ص146)

يتضح من الكلام السابق أن الانسحاب المؤقت من المجتمع والتأمل في عزلة يعتبران ضروريين لتجديد القوى النفسية والروحية؛ غير أن هذا الانعزال ليس غاية في ذاته، بل وسيلة للعودة إلى الحياة الاجتماعية بطاقة متجددة وبصيرة أعمق، فالانفراد إذن مرحلة عابرة تهدف إلى تحسين التواصل والتفاعل مع الآخرين على المدى الطويل، وليس مقصدا نهائيا وحالة دائمة ينبغي الاستمرار فيها.

3.2.3 المجاهدة النفسية

تتجلى المجاهدة النفسية في تعاليم أبي مدين الغوث من خلال عدة أقوال وتوجهات أشرنا إليها آنفا. فقوله: "من أنس بالخلق، استوحش من الحق" يدعو إلى مجاهدة النفس في التخلص من التعلق المفرط بالدنيا. كما أن حديثه عن "الوحدة الخلقية" كنار تحرق رعونة النفس وتميت دغائلها يشير إلى أهمية المجاهدة في تزكية النفس. وقوله: "فكن عن الناس جانبا، وارض بالله صاحبا" يدعو إلى مجاهدة النفس في الانقطاع عن الخلق للتقرب من الله، أيضا تأكيده على أهمية "حسن الاستماع والافتقار" مع العلماء، و"السكون والانتظار" مع أهل المعرفة، و"التوحيد والانكسار" مع أهل المقامات، كلها تشير إلى ضرورة مجاهدة النفس في التواضع وكبح جماح الأنا. هذه التعاليم مجتمعة تؤكد على أهمية المجاهدة النفسية المستمرة في الطريق إلى الله عند أبي مدين الغوث.

ويجسد قول: "اجعل الصبر زادك، والرضا مطيتك، والحق مقصدك ووجهتك" جوهر المجاهدة النفسية في التربية الصوفية المدينية، فالصبر كـ"زاد" يمثل الأساس الأول في هذه الرحلة الروحية، وهو تدريب للنفس على تحمل المشقات ومقاومة النزوات، فمن لا صبر له لا زاد له، ومن لا زاد له قطعته المجاعة، ولم يستقم في الطاعة، (بن علان، د.ت، ص112) ما يعكس بداية المجاهدة في مقاومة الشهوات الظاهرة، أما الرضا كـ"مطية"، فإنه يجسد المرحلة التالية في مجاهدة القلب ضد الطمع والحسد، مرسخا القبول بقضاء الله، وهو ما يمثل الانتقال إلى تهذيب الأخلاق الباطنة، كما هو واضح أيضا في قول "أبي علي الدقاق" (ت 405هـ): " ليس الرضا أن لا تحسن بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء "، (القشيري، (2022م)، ص228) أما اتخاذ الحق "مقصدا ووجهة" فيمثل الغاية السامية للمجاهدة، متطلبا كفاحا مستمرا ضد أهواء النفس وإغراءات الدنيا.

وبناء على ما سبق، يمكن القول إن منهج أبي مدين يتماشى مع فكرة التدرج في طريق المجاهدة الروحية، مصورا إياها كعملية مستمرة تتألف من الصبر كأداة، والرضا كمسار، والحق كهدف نهائي، هذه العملية الممتدة من مجاهدة الشهوات الظاهرة إلى تنقية الأخلاق الباطنة تؤكد الترابط بين المجاهدة والعبادات،

مبرهنة أن الصبر والرضا والسعي نحو الحق هي ممارسات يومية ملموسة، وليست مجرد مفاهيم نظرية، فمن خلال الالتزام بالفرائض والنوافل، يحقق المؤمن التحرر من سيطرة الشهوات، وتهذيب النفس، والارتقاء الروحي، ويلخص أبو مدين هذا المفهوم بقوله: "من قام بما يجب عليه من الأحكام تخلص وارتفع"،(بن علان، د.ت، ص 280، 281) موضحا أن الالتزام بالواجبات الدينية يؤدي إلى التخلص من النقائص النفسية والارتقاء الروحي. وهكذا، تصبح المجاهدة سلما يرتقي به المؤمن نحو القرب الإلهي، محولا القيم والفضائل إلى واقع ملموس، ومؤكدا على أهمية تطبيق المبادئ الدينية في الحياة اليومية لتحقيق التزكية الذاتية والنمو الروحي.

كما ربط بين المجاهدة والمحاسبة الذاتية، حاثا المريدين على مراقبة أنفسهم باستمرار وتقييم تقدمهم الروحي، وقد أوضح ذلك بقوله: " بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة " بمعنى أنه بمحاسبة النفس على أفعالها، يصل العبد إلى مقام مراقبة الله تعالى عن قرب، وفيه يرى العبد الحق جل جلاله حاضرا أمامه، فيراقبه بكل خشوع وإخلاص. وعندما يدرك العبد صغر نفسه وحاجة الخلق إلى الله، تنشأ لديه رغبة في أن يمنحه الله من فضله ونوره، حتى يمكّنه من أن يكون وسيلة لهداية الآخرين وإرشادهم إلى طريق الله. (باعشن،(2005م)، ص22)

وفي قوله: " ما وصل إلى مقام الحرية من عليه من نفسه بقية." اعتبر المجاهدة وسيلة لتحقيق الحرية الحقيقية، بتحرير النفس من أسر الشهوات والأهواء. (بن علان، (د.ت)، ص98)

وبناء على ذلك، يمكن القول إن منهج أبي مدين في المجاهدة النفسية يعكس فهمه العميق لطبيعة النفس البشرية وحاجتها المستمرة للتزكية، مقدما مسارا عمليا للارتقاء الروحي يجمع بين المجهود الشخصي والهداية الإلهية، وتبرز الممارسات الروحية كعنصر أساسي في هذا المنهج التربوي والسلوك الصوفي، حيث تهدف إلى تطهير النفس ورفعها روحيا؛ تحقيقا للعبودية الحقة لله تعالى والإحسان في معاملة الخلق.

3.3 العلاقة بالمجتمع

1.3.3 الدعوة إلى الإصلاح

أشرنا آنفا إلى أن التزام أبي مدين بالمذهب المالكي كان عاملا هاما في نيله مكانة مرموقة في المجتمع؛ حيث كان ينظر إليه كمصدر موثوق للعلم الشرعي والنصائح الروحية. ولذلك نجده في منهجه التربوي يجمع بين تهذيب النفس وتحمل المسؤولية تجاه المجتمع، فحث أتباعه على الانخراط بفاعلية في الشأن العام،

مؤكدا على دورهم في نشر المعرفة وتعميم العلم؛ كونه يمثل أداة محورية لتحقيق الإصلاح المنشود. ويرى في هذا السياق أن "..العلم غنى.." ويقصد به العلم النافع، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله وحكمة أوليائه، فهو ثروة حقيقية في الدين والدنيا معا؛ في مجال الدين، يمنح الاستقلالية في فهم ما يحتاج إليه لتحسين الظاهر والباطن، دون الحاجة الدائمة لسؤال الآخرين. أما في الدنيا، فيرشد إلى كيفية تحصيل الاحتياجات من خلال التوجه إلى الله وحده. هذا العلم يعلم الاعتماد الكامل على الله، فتركز الهمة عليه وحده، وتوجه جميع الحاجات إليه. (بن علان، (د.ت)، ص 246).

هذا الطرح يعكس عمق فهم أبي مدين للعلاقة الوثيقة بين التطور الروحي والنهضة المجتمعية، فهو يرى أن الارتقاء بالمجتمع يبدأ بتزكية الفرد، لكنه لا يكتمل إلا بانخراط هذا الفرد المزكى في خدمة مجتمعه ونشر المعرفة فيه.

ويؤكد من جهة أخرى على أهمية ممارسة الأمر بالمعروف مثل نشر قيم التسامح والتعاون، وتحقيق العدالة الاجتماعية، ومساعدة المحتاجين، والنهي عن المنكر مثل محاربة البدع والخرافات، ونبذ التعصب، بأسلوب حكيم ومدروس، حيث يشير إلى أنه "من أعرض عن تحقيق النظر لم يجب عليه إزالة المنكر؛ لأنه لم يتحققه" فالشخص الذي لم يبذل جهدا في فهم وتحقيق النظر في أحكام الشريعة لا يقع عليه واجب إنكار المنكر؛ لأنه لم يدرك حقيقته بعد فالأولوية هي أن يتعمق المرء في فهم ما يجب عليه فعله وتركه في دينه، فإذا أهمل هذا الفهم العميق، لا يمكنه أن ينكر على غيره وهو نفسه مقصر، مصداقا لقوله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) [البقرة :44] وقوله: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3]، هذا يشبه محاولة تطهير الآخرين بماء غير طاهر، لذا قبل أن يسعى المرء لإصلاح مجتمعه، عليه أن يبدأ بتزكية نفسه وتعميق معرفته بأحكام دينه فالإصلاح الحقيقي يبدأ من الداخل قبل أن ينتقل إلى الخارج(بن علان، (د.ت)، ص 270).

تؤسس هذه الفكرة لمنهج إصلاحي يبدأ من الفرد وينتهي بالمجتمع، حيث تؤكد على ضرورة البدء بإصلاح الذات وتعميق الفهم الديني قبل الشروع في دعوة الآخرين. هذا النهج يعزز مصداقية الداعي ويجنبه التناقض بين القول والفعل، مما يزيد من تأثير دعوته في المجتمع، كما أنه يدعو إلى الحكمة والتدرج في عملية الإصلاح، مع إدراك ثقل مسؤولية الدعوة وأهمية التأهل لها.

بهذا تصبح الدعوة إلى إصلاح المجتمع عملية متكاملة تجمع بين العلم والعمل، وتبدأ بتزكية النفس قبل الانتقال إلى إصلاح الآخرين، مما يضمن إصلاحا مجتمعيا أكثر فعالية وقبولا.

2.3.3 التوازن بين الانقطاع للعبادة والمشاركة المجتمعية

يجسد فكر أبي مدين شعيب نموذجا للتوازن بين العزلة الروحية والمشاركة المجتمعية في التصوف الإسلامي، فهو يرى أن الكمال الروحي لا يتحقق بالانعزال التام عن المجتمع، بل بالجمع بين العبادة والخدمة الاجتماعية، وكما أشير إليه آنفا، تعد الخلوة والعزلة ضروريتين لتجديد الطاقة الروحية،

لكنهما وسيلة للعودة إلى المجتمع بقوة معنوية أكبر، وليستا غاية في حد ذاتهما. فالعابد الحقيقي هو من يستثمر ثمرات عبادته في خدمة الآخرين، مشجعا على التفاعل مع قضايا المجتمع والمساهمة في حلها. ومن أقوال أبي مدين الغوث حول التوازن بين العبادة والمشاركة المجتمعية: " من ضيع حقوق إخوانه ابتلى بتضييع حقوق الله"، فالعارف الحقيقي هو من يحافظ على توازنه في جميع الأحوال، فلا يمنعه قربه من الله من الاهتمام بالخلق، ولا تشغله أمور الدنيا عن ذكر الله، كما أنه يبقى متزنا في حالات الوعي والغيبة عن النفس، يعطي كل ذي حق حقه، ويفي بمتطلبات كل مقام، فقد كان النبي محمد ﷺ مثالا حيا لهذا التوازن؛ إذ كان يجالس الناس ويتحدث معهم بتواضع كأنه واحد منهم، يعامل الصغير برفق، ويحترم الكبير، ويمازح الجميع بلطف. وهذا يوضح كيف يمكن للمرء أن يجمع بين القرب من الله والتفاعل الإيجابي مع المجتمع. (بن علان، (د.ت)، ص 240)

كما أن قول أبي مدين "أنصف الناس من نفسك، واقبل النصيحة ممن دونك تدرك شرف المنازل" يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم المشاركة المجتمعية الفعالة. فإنصاف الناس من النفس، وإن لم ينصفوا، وإيفاء حقوقهم وإن لم يوفوا الحقوق وجفوا، ومقابلة سيئاتهم بالحسنات، وصلة من قطع، وإطعام من حرم، والعفو عمن ظلم؛ لبلوغ أعلى المقامات، وقبول النصيحة من كل أحد، وإن كان أدنى مرتبة، وأخذ الحكمة من كل من تُسمع منه (بن علان، (د.ت)، ص 157). تؤسس لنهج تعاوني في التفاعل الاجتماعي، فعندما ننصف الآخرين ونصغي لهم بغض النظر عن مكانتهم، نخلق بيئة مجتمعية صحية تشجع على تبادل الأفكار وتعزز الشعور بالانتماء والمسؤولية المشتركة. هذه الممارسات تؤدي إلى مشاركة مجتمعية أكثر فعالية وشمولية، حيث يسهم كل فرد بقيمة في النسيج الاجتماعي، مما يرفع من شأن المجتمع ككل ويحقق "شرف المنازل" على المستوى الفردي والجماعي.

خاتمة:

شكلت مدرسة أبي مدين شعيب بنية فريدة في التصوف الإسلامي، حيث تميزت بالتوازن الدقيق بين العلم والروحانية. وأسست منهجًا صوفيا معتدلا يجمع بين متطلبات الشريعة وعمق الحقيقة الروحية، مما منح مدرسته امتدادا واسعا من المغرب إلى المشرق.

ركز أبو مدين على تأصيل التصوف ضمن الإطار الإسلامي الأصيل، معززا مبدأ التوازن بين العقيدة والممارسة. فلم يكن اهتمامه قاصرا على التأمل الروحي، بل سعى إلى تحقيق تكامل بين العلم والعمل والظاهر والباطن. وقد تجلى ذلك في اهتمامه بالمذهب المالكي وربط التصوف بالواقع الاجتماعي، كما

أسهمت زوايا أبي مدين في بناء صرح علمي واجتماعي، حافظ على الهوية الإسلامية وعزز قيمها الروحية. فكان منهجه وسيلة لتزكية المجتمع وتعميق الفهم الروحي المتوازن، مؤكدا على أهمية التوحيد والتنزيه في العلاقة بالله، وتميزت مدرسته بالاعتدال الفكري ورفض الانحرافات، مما اكتسبها قبولا واسعا لدى العلماء والنخب. وقد نجح أبو مدين في تقديم نموذج صوفي يجمع بين العمق الروحي والالتزام الفقهي، تاركا بصمة فكرية واجتماعية مؤثرة في الحياة الدينية بالغرب الإسلامي.

المصادر والمراجع:

أولاز القرآن الكريم

- ابن القنفذ، احمد بن حسين، (1422هـ/2002م)، أنس الفقير وعز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم، تحقيق: أبو سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة.
- ابن مريم التلمساني، محمد بن محمد، (1986م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- إيزولي، رضوان محمد سعيد عجاج، (2013م)، تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي " أبو مدين التلمساني أنموذجا" دراسة تتناول العلاقة بين الحب الصوفي والحب العذري، مجلة التواصل الأدبي، جامعة باجي مختار، عنابة، العدد الرابع.
- -باعشن، أحمد بن عبد القادر، (2005 م)، البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بن علان ، أحمد بن إبراهيم ، (د.ت)، شرح الحكم الغوثية، تحقيق، أحمد فريد المزيدي، دار الآفاق العربية، القاهرة .
- بوعزيز، يحي، (2009م)، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار البصائر الجزائر.
- بونابي ، الطاهر، (2004م)، ا لتصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجرين، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة .
- التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحي، (1997م)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي يعلى العباسي السبتي، منشورات كلية الآداب الرباط، المغرب.

- الجيلاني، عبد القادر، (1990م)، الغنية لطالبي طريق الحق، دار إحياء التراث العربي، بير وت.
- الحفناوي، أبو القاسم محمد ، (1985م)،تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- سرور، طه عبد الباقي، (2017م)، التصوف الإسلامي والإمام الشعراني، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة.
- السكندري، ابن عطاء الله، (2008م) ، *مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح* في ذكر الله الكريم الفتاح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
- عيسى، عبد القادر، (2007م)، حقائق عن التصوف، دار العرفان، سوريا.
- الغبريني، أحمد بن أحمد، (1981م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الغوث، أبو مدين، (2011م)، ديوان أبي مدين شعيب الغوث، تحقيق: عبد القادر سعود وسليمان القرشي، كتاب ناشرون، بيروت.
- القسطلاني، شهاب الدين ، (2021م)، ***إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري***، دار ابن حزم، بيروت.
- القشيري، عبد الكريم ، (2022م)، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، دار المنهاج، جدة .
- لسان الدين بن الخطيب في"الإحاطة في أخبار غرناطة"{1/113}
- محمود، عبد الحليم، (د.ط)، أبو مدين الغوث، دار المعارف، القاهرة.
- المقّري التلمساني، أحمد بن محمد،(1988م)، نفح الطيب، تح :إحسان عباس، دار صادر، بيروت،
- نصر، عاطف جودت ، (1983م)، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت.
- اليافعي، أبو محمد عفيف الدين، (1997م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، تح: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت .